سيرة ولز بقلمه

Experiment in Autobiography by H. G. Wells.

لبعقوب فام

عند ما تقرأ احدى السير تشعر باحدى عاطفتين ، اما ان الكاتب متحيز لصاحب السيرة يحبه الحب كله ويرى انهُ من خيرة الناس جميعاً ، قد ارتقى الى الذروة برغم الاحوال التي كانت تحيط به ، وبرغم النظم الاجتماعية التي كانت تقيم الصعاب في وجهه وتضطهده اضطهاداً وتنغص عليه عيشه

اما انك تشعر بهذا او تشعر ان الكاتب متحامل على صاحب السيرة يظن به السوء ويترجم نوازع نفسه على أغير ما يمكن ان تترجم به ، ويرى ان تصرفاته في بعض مراحل الحياة او في كثير منها تصرفات معيبة بذلك لأن فلسفة الكاتب ومنازعه النفسية ومثله الاجتماعية والسياسية قد تغاير فلسفة صاحب السيرة ومنازعهُ ومثله بحيث لو كتبت سيرة موسوليني مثلاً لرأيت العجب ، فبعض الكتاب يحمل عليه وبعضهم يدافع عنهُ ، وبالطبع تختلف مراتب الكتاب في الهجوم والدفاع فمنهم من يقسو كل القسوة ومنهم من يتلطف في نقده ولكنهُ ينتقد ويذم على كل حال

قرأت مؤخراً اربع تراجم ، واحدة عن ماري انطوانيت ، وواحدة عن مصطفى كمال ، والثالثة عن فورد ، والرابعة عن هـ. ج. ولز ، وهذه السير الاربع تدعم وجهة نظري التي تقدمت بها الآن ، فسيرة ماري انطوانيت عبارة عن دفاع مجيد شائق عن هذه السيدة البائسة خرجت منهُ اعطف عليها واري ان الزمن خلعها بوضعها في المكان الذي ولدت له ، واما سيرة مصطفى كمال فهي عبارة عن اتهام للرجل بانهُ انانى تمعن في الانانية منتهك مدمن السكر ، وكل ما له من الفضائل انهُ يحب تركيا باخلاص ، وهاتان السيرتان كتبهما شخصان بعيدان عن صاحبي السيرة فكنت تستطيع ان ترى ميول الكاتب ومشاعره وتلمسها

اما فورد فقد كتب السيرة بنفسه ، وليست في الواقع سيرته هو وانما هي تاريخ حياة مصانعه واغراضها ونظمها . وفي سيرة ولز التي كتبها عن نفسه لا تستطيع ان تتبين تلك المنازع الحادة العنيفة التي سبق ان ذكرناها فليست هي اتهام وتعنيف لولز لانهُ هو الذي كتبها ولا يعقل ان يكتبها ليقول للناس « انظروا يا ناس ما بلغتهُ من الرذيلة والشر » وليست هي مدح على طول الخط لانهُ لا يعقل ان رجلاً متقفاً مثل ولز يكتب الفصول الطوال في مدح نفسه ، وانما هي سرد لحياته سرداً هادئاً متئداً ، بعيداً عن المنازع القوية العنيفة : لا بل هي سرد لتطور شخصيته وعقليته وكيف تدرجتا من حال الى حال من دون ان يتورط في التظاهر بالبطولة او بالتضحية

ولد هربرت جورج ولز في سنة ١٨٦٦ في هاي ستريت بروملي بمقاطعة كنت من والدين فقيرين

من طبقة الخدم الراقية ، يعني ان امه كانت رئيسة خادمات احدى القصور في يوم من الايام ، وكان ابوه صاحب متجر لفخار اسمهُ Atlas House لم يكن يدرُّ عليهم كفايتهم من القوت والكساء ، وكانت امهُ امرأة متدينة متعبدة تتلو الانجيل اولاً ثم رسله وكتبه ثم المملكة فكتورية « المملكة العزيزة الصغيرة » . وكانت المملكة العزيزة الصغيرة هذه على لسان امه صباح مساء ، فالملكة حضرت والملكة ذهبت والملكة عملت ، حتى اشمأزت نفس هربرت جورج ولز ونبتت في قرارات نفسه بذرة الكراهية للملكية ، والى هذا يعزو ولز نفسه تمسكه بالجمهورية ومهاجمته للملكية في جميع اطوار حياته

كانت أمه متدينة وتلح على ابنها هربرت ان يتناول بعض الجرعات الدينية ، فكانت تجعله يصلي ، ويحفظ عن ظهر قلب أصول العقائد المسيحية ، ثم ألحقت عليهِ بالمسائل الدينية الحافاً جعله يهرب بمشاعره بعيداً عن هذا العدوان . كان في الجسم جالساً أمامها يستمع لها تصب على رأسه هذه العقائد صبًّا وكان من نتيجة هذا أيضاً أنهُ بعيد عن الاديان والعقائد بعداً كبيراً

كان يرى أمه تجاهد جهاد الابطال في تدبير الشؤون المادية للمنزل ، من دون ان يكون لهذا الجهاد ، الاثر المادي المحسوس ، ثم كانت تصلي لاجلها حتى ييسر أحوال المعيشة لهم ولم يكن الله يستمع لهذا الدعاء ، وكان ولز يسجل هذا في ثنايا عقله تسجيلاً ليحاسب الله عليهِ حساباً عسيراً عند ما يبلغ أشده ، ولكن الحرارة الدينية فترت نوعاً في والدته عند ما شاء الله ان يأخذ أختاً لولز ، وسجل ولز في نفسه هذا الفتور عند والدته دون ان يتحدث بهِ

ثم كسرت ساق هربرت جورج ولز وهو ابن عشر سنين . وكانت هذه الحادثة بدء حياة ولز الفكرية وهو يشكر طالعهُ أنْ كسرت ساقه ، (وقد يكون لامه رأي بخلاف هذا) فقد تمدد على كرسي طويل يدفعونه من مكان لمكان وهو منبسط عليهِ لا يتحرك ، وقضى أياماً طوالاً على هذه الحالة بعيداً عن الحركة والنشاط البدني ، فكان أبوه يحضر له الكتب من مكتبة البلدية ليقرأ قتلاً للوقت . ولم يكن الوالد يدري بالطبع ما هو فاعل ، اذ أنهُ في الواقع قد وضع الاسس التي سوف تبنى عليها حياة رجل من أعظم مفكري العالم ، كان من نتيجة هذه المطالعات البسيطة ان أخذت نفسيته تتجه الى المعرفة والى الكتب وصار يشعر ان خير ما تستطيبه نفسه هو ان يقرأ من غير انقطاع ، ونشأت بينهُ وبين الكتب صلة قوية نمت بنموه واتسعت باتساع عقله

وفي دور آخر من أدوار حياته تهشمت احدى كليتيه وهو يلعب بالكرة . ثم أصيب بذات الرئة فعكف على كتبه وانزوى في سريره . وولز شاكر لهذين الحادثين لانهما أوجدا الصلة بينه وبين الكتب تلك الصلة التي وضعته حيث هو الآن في المقام الاول من المفكرين

كان فقيراً جدًّا ، وكانت أمه كسكل أم حريصة متكبرة تمنعهُ ان يخلع سترته أمام الصبيان في المدرسة لئلا تنكشف تحتها الملابس الداخلية المهلهلة المرقعة . كانت هذه الملابس الداخلية نظيفة حقًّا ولكن احترام النفس يقتضي عدم اظهار الناس عليها

لا يمكن ان تمرّ كل هذه التقديرات العقلية والاسرار النفسية دون ان تترك اثرها في الطفل. فأقل ما فيها انها لا تترك الطفل على سجيته ، فلا يشعر معها بالحرية والانطلاق والبراءة في التوافع والنزاع النفسية ، لان من عناصر هذه الحالة ان الطفل يحيا حياتين احداهما لنفسه ولامه وأبيه والاخرى للدنيا الموضوعية ، للناس وللاوضاع الاجتماعية . هناك ناحية من حياته يخجل ان تظهر للناس على طالتها دون مداراة او مداورة . ثم عند ما يتريب الناس في تصرفاته لا يستطيع ان يتقدم بالاسباب الاصلية لهذه التصرفات ، فيضطر ان يداري ويداور ويتخابث ، او يعرض نفسه لشك والريبة . لست أنكر ان كلاً منا يحيا حياتين احداهما خاصة والاخرى عامة ، ولكن الاحوال التي تضطر طفلاً في الخامسة الى العاشرة ان يعيش على هذا الوضع ، احوال قاسية على نفسية الطفل لا بدّ ان تترك أثرها المستديم في حياته الروحية والعقلية والعاطفية

عجزت عائلة هربرت جورج ولز عن ان تقوم بمطاليبه المدرسية ، واضطرت لاستغلاله اقتصادياً ليعين العائلة في كفاحها للحياة والعيش . فأدخلته أمه صبياً في متجر للأقمشة ، لينظف الدكان ، ويرتب البضاعة ويناولها للبائعين لعرضها على الزبائن ، فحاول جهده ان يوطن نفسه على هذه الحياة ولكنها حياة لا ترقى أمال الصبي هربرت ، انهُ يفكر ويغرم بالكتب والمطالعة ويكره هذه الحياة التي اضطرّ اليها اضطراراً ، فينشب نزاع حاد في نفسه لا قبل له بتسكين نفسه أو بترويضها على الخضوع لنوع الحياة الذي وجد فيه ، فيهرب ويذهب الى المدرسة ، ويكافح ويشتغل ليلا ونهاراً وتؤاتيه الظروف فينجح

قلت في مقدمة هذا الكلام ان ولز لا يدافع عن نفسه ولا هو معنيٌّ باظهار نواحي العظمة في نفسه ، وانما هو يسرد الاطوار العقلية والنفسية التي مرّ فيها ويترك للقارىء ان يخرج بالنتيجة التي تروقهُ ، ومن المسائل التي تناولها دون تعليق لتبرير نفسه او تعنيفها ، مسألة طلاقه من زوجته الاولى ، ابنة خاله . معروفه للجميع الآن ان ولز من المتطرفين في التفكير والمخاصة في العلاقات الجنسية كما يتبين من كتاباته الكثيرة ، ولقد اتهم بالاباحية في الاخلاق وهوجم في نيّاته واغراضه ، وكان منطق الحوادث مما يعين مهاجميه وناقديه ، ذلك لأنه ترك زوجته والتصق بامرأة أخرى وعاش معها بعيداً عن زوجته في منزل مستقل ، ولا يلام انسان بالطبع يزعم ان ولز اباحي لأن الحوادث شاهد على هذا الزعم

انسان يدافع عن الحرية الجنسية ، ويدعو الناس الى التحرر من قيود الاجتماع في الشؤون العائلية وفي نفس الوقت يترك امرأته ليلتصق باحدى الطالبات اللائي كنّ يدرسن عليه في المدرسة — يصعب على الناس الآ يتهموه في نيّاته واغراضه ، والناس يحكمون بالظواهر وبالتصرفات الواقعية ويستقرئون النيّات والاغراض من السلوك . حقّاً ان هذا الاستقراء خطأ ، وان الصواب ان تستقرأ التصرفات من النيّات والدوافع النفسية ، ولكن هذه تخفى على الجماهير في معظم الحالات او في كلها ،

ولا تظهر الا للسكولوجيين الباحثين واذن فمكانة اسمه التي تكاد تكون اسمى تتوم عليها في مسطق عامة الناس ، وكان ولز اباحيًّا هدامًا للاخلاق والفضائل ولولا ان الانكليز متعصبون لحرية الرأي يقدسونها من قديم لما نجا ولز من السجن والتشريد

الواقع ان هربرت جورج ولز لم يكن اباحيًّا ثائراً على الاخلاق والفضائل ، لم يزعم هو ذلك لانهُ لم يكن بسبيل الدفاع عن نفسه ، وانما يقوله كل من يقرأ سيرة حياته دون تعنت او تزمت . ترك ولز زوجته الاولى والتصق بامرأة اخرى ، ثم جيء به الى القضاء وتطلق من زوجته الاولى ، ومع ذلك فقد احاطها بعنايته كل حياتها وقام بجميع مطاليبها ، وابتنى لها بيتاً بعد ان تزوجت من غيره ، ثم تكفل بها بعد وفاة زوجها ، ثم تزوج خليلته حالما اصبح حرًّا طليقاً وعاش معها على أتم وفاق وانجب منها اولاداً احدهما الاستاذ ولز استاذ علم الاحياء Biology ومعينه في انتاج بعض اعماله العلمية الكبيرة

سرد ولز هذه الوقائع سرداً بسيطاً دون تعليق او تعقيب ودون ان يدفع عن نفسه شيئاً من التهم التي تكاد له بالحق وبالباطل ، لا بل لم يسردها بالتفصيل لانهُ حتى على ما يظهر ان يفيض فيها فيودي بالمسحة العلمية لكتابه وانما ترك للقارىء حريته فيقرأ السطور ويخرج بالنتيجة التي تروقهُ ، دون ايحاء او تأثير ، ودون ان يتم بتأثيم نفسه او بتبرئتها مما لحقها . فلمن شاء ان يتهمهُ بالاباحية ولمن شاء ان يبرئه منها وولز في الحالين قانع راض . ومن يقرأ سيرة ولز يلاحظ ظاهرة غريبة ، وهي ان كل كتاباته الادبية مؤسسة على قطع من اختباراته في الحياة ، فكان عند ما يعرف شخصية ما ينقلها من الحياة الى الادب في قصة يحوك اطرافها في خياله يدعو فيها الى نوع من الفلسفة التي يدعو اليها في حياته الواقعية ، وبعبارة اخرى كان يأخذ شخصياته من الحياة ويضع على السنتها فلسفته في الاقتصاد والاجتماع ثم يطلقها تبشر برأيه بين جمهور القراء ، فهو لا يعنى بتزويق اللفظ ، او حبك الجمل . لم يكن يعنى بالقالب الادبي او بالمقاييس الادبية في كتاباته وانما يحرص على ان يكون علميًّا في اعماله الادبية ، فهو على النزعة بعيد عن الفن الخالص كما يفهمهُ ارباب الفن ، فقد تخيل الطيارات والسفر بها قبل ان تخترع ، وتخيل الدبابات وعاش الى ان رآها تعمل مع الجيوش في الحرب العظمى ، ثم كتب عن القمر وعن المريخ وعن الارض بعد الوف السنين ، كل هذا كتبهُ بطريقة علمية في قالب القصص

وفي هذه السيرة أيضاً تقرأ رأي ولز في طائفة كبيرة من الادباء والعلماء ورجال السياسة الذين عاصروه ، تقرأ عن لنين وستالين وروزفلت وجراي وبلفور ومكسيم جوركي وكبلنج وشو ورسل ، وهو جري في التحدث عن هؤلاء ، لا يداريهم ولا يتملقهم ، ولا يحمل عليهم من غير ضرورة أو مسوّغ ، وانما هو يسرد شئونه معهم في هدوء ووقار ، وتخرج أنت من هذا السرد برأي في كل منهم

بالطبع لا أستطيع ان ألخص سيرة ولز ولا أظن أن أحداً يستطيع ذلك وانما كل ما يمكن أن يضطلع به انسان هو أن يستعرض بعض نواحي هذه السيرة كما استعرضتها أنا ، ثم يعلق عليها كما علقت ولا يغني هذا عن قراءة سيرته أي غناء